حول مستقبل الأزهر

للأستاذ كامل السيد شاهين

المسئولون فى الأزهر قلما يمدون أبصارهم لترى مستقبله القريب أو البعيد ، فلهم الساعة التى هم فيها ، فإذا ما عبرت ، استقبلوا ما يليها لا معتدين ولا عابئين ، ولكن ممدودى الأيدى مرتمى الصدور . وكأنهم مسئولون — حسب — عن الميزانية زادت أم نقصت ، وعن الملاوات أطلقت أم حبست ، وعن الترقيات أصيب بها موضعها أم جرت مع أهواء المصيبة والحزبية والقرابة . فهذا من حسابهم ، يدركونه مرة ، ويكبون دونه مرات ؛ ويرعون فيه الذمة والأمانة تارة ، وينساقون وراء الآراب والشهوات تارات . فيحتقرون الذمم ويتخونون الأمانة ، ولكنهم يرون هذه الشؤون — على أى حال — مما يدخل فى حسابهم . فأما مستقبل الأزهر فما عليهم من حسابه من شىء !

أقول هذا بمناسبة ما تناوله مجلس التعليم الأعلى الذى مثلت فيه الطوائف ما عدا الأزهر الشريف ، وبحث فيه أمر مراحل التعليم ، وتوحيد مرحلته الأولى ثم تشعيبها أفنانا وطرائق ، والأزهر يغط فى نومته لا يدرى أينبت الطريق إليه أم يتصل ، أيموج أم يستقيم . وليس هذا من عيب الوزارة التى أغفلته ، ولكن عيب هؤلاء المسئولين فيه الذين استرسلوا فى غفلتهم فلم تنبههم الجرائد ، ولم توقظهم الإذاعات ، ولم يفتح أذهانهم هذا اللغط اللاغط الذى يتناثر من أفواه المتكلمين فى الطرق والمقاهى والمجالس العامة أو الخاصة

من المسئول عن هذه الغفلة من رجال الأزهر . شيخه ؟ وماذا يمنع أن نقول نعم جريئة قوية . وما نحسب أن المرض الذى غشيه مانع من التفكير والتدبير . أم وكيله ؟ وماذا يمنع أن نقول نعم جريئة قوية . وما نحسب أن شؤون الأزهر التى جمعها فى حجره يصرفها فى تؤدة وعناء وولاء ، ويقوم عليها فى الإصباح والإمساء مانعته من التفكير فى مستقبله ، وتأمين الطريق إليه ، فإن كان كذلك فقد استهلك وكيل الأزهر وقته فى الجزئيات التى كان يستطيع أن يملأ بها الأيدى الفارغة التى أصابها أكال من قلة العمل . فهذا مدير الأزهر ، وهذا سكرتيره العام ، لا يكادان يجدان عملا ، وهما من قبل ومن بعد يقضيان صدر نهارهما فى الإدارة العامة ، مجالسة ومؤانسة وترحيبا

وكيل الأزهر ، يضع عائشة على أم الخير ، وقد كان فى أم الخير له شاغل أى شاغل ، ولكنه يقاوم ويتقاوى ويعمل على رهق . . ومثل هذا جدير بأن يزل وأن يكثر منه هذا الزلل . وميزان العمل جدير بأن يختل ، وأن يطول به هذا الاختلال . . وحقيق بوكيل الأزهر ما دام يدير دولاب العمل وحده أن ينصرف عن النظر فى مستقبل الأزهر ، إلى النظر فى التوافه والسفاسف التى تملأ الوقت ولا تؤتى الثمر

نظر مجلس التعليم فى أمر المرحلة الأولى فجعلها نوعا واحدا قائما على دراسة ست سنوات سماها التعليم الابتدائى ، منها سنتان لرياض الأطفال . وأباح — بقرار من الوزير — إنشاء فرق لتحفيظ القرآن الكريم تمهيدا لمن شاء أن يتم دراسته فى المعاهد الدينية ، ثم قسم التعليم الثانوى إلى علمى وتجارى وزراعى وصناعى ، وجعلها كلها أمدادا للكليات فى الجامعات

فما موقف الأزهر من هذا التنظيم ؟ أيبقى على القسم الابتدائى فيه ، وكيف ينسق هذا القسم مع الابتدائى العام ، أيكون بعده ، فيقضى التلميذ ست سنوات فى الابتدائى العام ثم يتقدم للقسم الابتدائى فى الأزهر ؟ . إننا إذا اتبعنا هذا فسوف نجد ابتدائى الأزهر خاويا لا ينظر إليه أحد ، لأن أحدا لا يضيع على نفسه ست سنوات كاملات لا لشىء إلا ليدرس فى الأزهر . وما الدراسة فى الأزهر بممتازة شيئا ، ولا بمعادلة فى نظر الكثرة من الأمة للدراسة فى المدارس أيا كان شكلها . إذا فنحن مضطرون إلى إلغاء هذا القسم ، ولكن كيف ينظم هذا الإلغاء ، وإلى أين يذهب هؤلاء المدرسون ؟ هذا يحتاج — من ورائك — إلى مباحثة وزارة المعارف والاتفاق معها على هذه التصفية ، ولندع الآن أمر هذه التصفية وطرقها ، ونستقيم فى طريقنا الذى نعرض فيه موقف الأزهر من التعليم العام

إذا ألغى القسم الابتدائى من الأزهر بقى القسم الثانوى نهرا لا يرفده رافد . فالتلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية لا يستطيع أن يشق طريقه فى القسم الثانوى بالأزهر . ثم هو راغب عن هذا الطريق لأن أمامه طرقا كثيرة أيسر يسرا ، وأوضح قصدا ، وأربح غاية . والنظر اليوم للحياة نظرة تسليح للضراب والتلاب ، ولا شك أن كليات الجامعة فى هذه الناحية تسلح الطالب للحياة أكثر مما تسلحه كليات الأزهر ، وقد كان كيان الأزهر قائما على شيئين : القداسة والفقر . فأما القداسة فقد فقدها الأزهر فى مصر على الأقل ، وما ينبغى أن يقوم معهد كالأزهر على شئ وهى ، وأن يستمد وجوده منه . وأما الفقر فقد كان عاملا مهما فى انصراف الناس عن المدارس إلى الأزهر . فقد كانت المدرسة منذ عشر سنوات مضت مظاهرها ومصاريفها للكتب وللتعليم وللحفلات . أما اليوم فالكتب بالمجان والتعليم بالمجان ووجبة الغداء بالمجان ، فأى مدفأة بعد انقضاض هاتين الدعامتين تدعو امرأ إلى أن يدفع بابنه إلى التعليم الأزهرى ؟ لقد رأينا الأساتذة من مدرسى الأزهر حينما يوسرون بعض اليسار يعرضون عن الأزهر إعراضا ، ويسلكون أبناءهم فى التعليم المدنى إيثارا له ، وإدراكا منهم أن الدولة تنظر إلى التعليم فى الجامعة نظرة أعلى من نظرتها للتعليم فى الأزهر . وأن الحياة تطلب النوع الأول ألطف من طلبها للنوع الآخر . . فإذا أضفنا على القسم الثانوى بالإلغاء كذلك بقى الدور الثالث من التعليم الأزهرى بلا سلم ، وهو بعد بعيد كل البعد عن كل نوع من أنواع الإغراء . فالدراسة فيه ليست سهلة ممهدة . ونتيجتها ليست زاهرة باهرة محببة

إذن فكل ظواهر النطق تؤذن بأن الأزهر مقضى عليه لا محالة . ومخدوع من مخدوعين ذلك الذى يزعم أن النزعة الدينية فى الأمة يمكن الاعتماد عليها فى الإبقاء على الأزهر وحفظ كيانه فإن التيار العام أقوى وأعتى من أن يتصدى له أفراد شذاذ من سوقة الأمة ورعاعها . ومخدوع كذلك من يعتمد على وزارة المعارف فى توجيه طائفة من أبناء الأمة للتعليم فى الأزهر ، فوزارة المعارف لا تملك هذا التوجيه ، ولو ملكته لوجب ألا تلجأ إليه ، فما لم يكن للأزهر فى نفسه من المحببات فيه ما يقيمه ويدفع قلوب الناس إليه راغبين ، فعليه العفاء . ونحن لا نملك أن نوجه لوما إلى وزارة المعارف فيما يسرت من أمور التعليم واحترمت من رغبات المتعلمين ، وإن عاد ذلك على الأزهر بالضمور والاضمحلال ؛ فإن حجتها فى ذلك أبهر وأظهر من أن يدل عليها . وكيف تطالب الحماية الأزهر من التعليم العام إلا إذا كان الأزهر نفسه لم يستطع أن يثبت صلاحيته ويقوم على قدميه ، فإذا كان هذا حاله فلتذهب به الرياح ليبقى الأصلح والأنجح ، وخلا المعارف ذم

ولكن ينبغى أن نضع فى حسابنا أمرين قبل أن نحكم على الأزهر بالإعدام . أول الأمرين أن نتساءل هل الدراسة التى يقوم بها الأزهر يمكن لكليات الجامعة أن تقوم بها ؟ الجواب . لا . ثم نتساءل : هل هذه الدراسة مفيدة فى ذاتها ، مطلوبة لصيانة الأمة الإسلامية . ولو فكرنا من ناحية حفظ تراث إن لم نحتجه اليوم فربما احتجناه غدا ، وإن غطى الزمن على بهارة نوره فترة ، فربما كشف عنها فى مقبل منه قريب أو بعيد ؟ الجواب نعم . وما دام الأمر كذلك فيجب أن يبقى الأزهر . ويجب أن يفهم المسئولون عن التعليم أنه لا بد من بقائه لأداء رسالة حاضرة أو مقبلة ، ولفظ تراث مجيد من اللغة والفقه ، ولو أنه حفظ يقوم على الترديد أكثر مما يقوم على التجديد حتى يتاح له من يخطو به يوما

وثانى الأمرين : هذه الأشاحة المرضة عن الدراسات الأزهرية هل تنبنى دائما على حسن التقدير أو يداخلها قليل أو كثير من الوراثة لأفكار جاهلة تتبع أكثر مما تتأمل ، وتنخدع أكثر مما تصيب ، ويغرها الزخرف أكثر مما تبهرها الحقيقة . فالحق أن كثيرا ممن يعرضون عن الدراسات الأزهرية ، قد استقر فى أذهانهم أن الأزهر إنما يدرس فيه أبناء الفقراء ، وأن الالتحاق به عبادة أكثر مما هو دراسة ، وأن أبناءه لا تنظر إليهم الحكومات بعين الاعتبار والتقدير ، وإنما تعاملهم معاملة ، او تطاولهم مطاولة ، أملا فى أن تصل على ظهورهم لغاية ، أو تكف بسكوتهم شرا وتتقى قلاقل

وإذن فما عند الناس من أفكار سيئة عن الدراسات الأزهرية لا يمثل الحقيقة ، والدراسات الأزهرية جديرة بالإقبال عليها

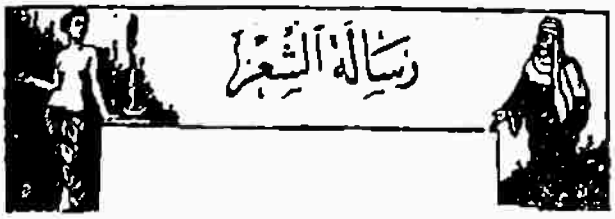

أغنية الحرمان

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

الى صديق الأستاذ حسين وفيق الجادر

* * *

يا شباباً في دمائي يتدفق ... وشهاباً شع في أفق حياتي
عمري الأول ولى فترفق ... بالذي أبقيت لي من سنوات

* * *

سنوات قد تولين سدى ... مثلما يفنى على الأرض الشعاع
لم أجد في ظلها إلا العنا ... والأسى القاتل والدمع المضاع

* * *

أنا ذوبت شبابي في هواك ... وأبحت السهد جفني ودمي
أتراني لم أنل بعد رضاك ... ولقد بح من الشكوى فمي

* * *

إن تكن تسخر من دمعي وحبي ... فلقد صغتك من نسج خيالي
دمية أبصر فيها طيف ربي ... وأرى في ظلها سر الجمال

* * *

أنا كونتك لكن لا لقتلي ... ولإلقائي بأحضان الظما
تائهاً أقطع بالآهات ليلي ... وجراحي تتزى ألما

* * *

سرت والأشواق تستقبل دربي ... علني ألقاك في الوادي القريب
فلماذا عندما أصبحت قربي ... مت عني كغدو أو غريب

* * *

أكذا مرعان ما تهجرني ... مثقل الخطو بأغلال الزمن

قدماها . والحكومة والأمة الإسلامية جديرة أن تحميها وأن تحتفظ بها . ولكن كيف السبيل اليوم ، وليس لأحد أن يرغم أحدا على اتجاه بعينه في الدراسات ؟

قلنا إن الأزهر قام على عنصرين : على القداسة ، وعلى الفقر . ونحن لا نحب أن نبقى على العصا الأولى لأنها عصا وهمية سخيفة ، ولو أدخلناها في الأساس اليوم ، فأجدر أن ينهار البناء كله

وأما العصا الأخرى فما زالت باقية برغم مجانية التعليم ووجبة الغداء . ذلك بأن أقواما — وكثير ما هم — في ضر من الحياة . فإن وجدوا مجانية التعليم ووجبة الظهيرة ، فمن لهم بوجبة الصباح ووجبة المساء؟ ومن لهم بمصروف اليد والكساء ؟ إذن فليحتضن الأزهر الفقراء من هذا الصنف ، وليبق بأقسامه الثلاثة قائما ، وليقلل من هذه المعاهد المنبثة في أنحاء القطر ، فليست الدولة بحاجة إلى كثيرين من المتوسمين في دراسات الأزهر . وأخيرا فليكن الأزهر جامعة داخلية تضمن الطعام والكساء والتربية والتعليم على ألا يزيد داخلوه كل عام على مائة . وليضمن لطلابه ومتخرجيه من الميزات ما تضمن الحكومة لمتخرجي الجامعات الأخرى

وليستصف هذا الوفر الوفير من الأساتذة والكتاب عاما في إثر عام ، وليبق فيه خلاصة مخلصة من الأفذاذ علما وخلقا ، وليرب هؤلاء الجدد من الطلاب تربية حرة لا تخضع لمبدإ من مبادئ السياسة ، ولا تنقاد لغرض من أغراض الحكام . فإذا تخرج في كل عام من هؤلاء عشرة فلنرين فيهم ما نرجو للأزهر من مكانة علمية وخلقية ، وليقوم من الأزهر بعد على قدميه ، وليثبتن أنه أهل للحياة !

وقد يظن متظننون أن هذا خيال خائل ، ولكن سوف يشهدون بأعينهم هذا الإعراض الشنيع عن الأزهر ، وعن دار العلوم حين ينقطع سببها من الأزهر ، وسيجدون أنفسهم قد أخلدوا إلى الآمال أكثر مما يصح الإخلاد ، وأن ما يواجههم من الشر أكبر من أن يدفع بالتصايح والبكاء !

فاضل السيد شاهين